

مذكرات واعظ أسير

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد السراصي المدعي بالزهر الشريف

« مذكرات واعظ أسير » كتاب أخرجه للناس منذ حين ، وسعى إليهم على استحياء ، راجياً أن يلقى منهم حسن الرضى وجميل القبول . وهو يصور أياماً قضت علينا الأقدار أن نقضيها خلف الأسوار ، لا لذنوب أو جريرة ، بل لعقيدة عاهدنا ربها على أن نعيش لها ، ونفنى من أجلها ؛ آملي أن يدخلنا صاحب الفضل والطول في عبادته الصالحين ، الذين رضى عنهم ورضوا عنه : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

وليس من همى في هذا المقال ، ولا من وكدى في ذلك المجال ، أن أتحدث عن الكتاب ، أو أن أعرض له بتحليل أو تفصيل ، فقد تكفلت مكتبة الخانجي المعروفة في القاهرة بنشره وتوزيعه في وادي النيل والبلاد العربية ، بالتعاون مع مكتبة المثنى في بغداد ، ومكتبة دار الكتاب بالدار البيضاء ، والمكتبة العربية بدمشق ، ومكتبة النهضة السودانية بالخرطوم ؛ ولكني أريد أن أستوحى من عنوان الكتاب بعض الخواطر الأدبية ، والمعاني العاطفية ، مما تتجاوب حوله المشاعر بين الكاتب وقرائه ... وهل أدب الأديب ، أو كتابة الكاتب ، أو لحن الشاعر ، إلا فلذات يقطعها من فؤاده ، ويقدها إلى الناس في صورة الكلام ؟ .

وهل السطور إلا ترجمان حسي للعاطفة والشعور ؟ . إن كلمة « مذكرات » تبعث في النفس الحديث عن « الذكريات » ؛ والإنسان مهما شغلته دنياه ، واستحوذت على جهوده مطامحه وآماله ، وكثرت من حوله أنفاله وأعماله ، وغرق في لجة الحاضر ، وتطلع ببصيرته ورجائه إلى المستقبل ؛ لا بد له من لحظات ، يرجع فيها إلى تلك الذكريات ، ليستعيدها ويعيش فيها ، وإنه ليود جاهداً أن يعود إليها حقاً وحساً ، فلا يستطيع إلى ذلك السبيل ؛ وكان أمير الشعراء قد لحظ ذلك المعنى حين قال في مقطوعته (جبل التوباد) :

كلما جئت راجعت الصبا فأبت أيامه أن ترجعا
وقد تكون هذه الذكريات عن فترة عصيبة ، لاقى فيها المرء مالاتي من غنت الأيام ، ولؤم الأحياء ، وابتلاء الحياة ، وامتحان الأقدار ؛ أو بذل أثناءها ما بذل ، من راحته ومادته وسمعته أيضاً .. وضاق بها ، وتمنى زوالها ، ولكنها بعد أن زالت ، وأوغلت بسبقها في أعماق الماضي السحيق ، تعاود الإنسان من حين لحن ، فيجد لها لذة ، ويحس لاسترجاعها متعة ، ويتمنى إليها رجعة ، وكأن العذاب قد انقلب في الذكرى نعيماً ، وكأن الشقاء قد تحول عند الاسترجاع سعادة ؛ حتى قال بعض الحكماء : إذا أردت أن تذوق طعم السعادة ، فارجع إلى الوراء زمناً بعيداً ، وتذكر أيام طفولتك ، وما جرى لك فيها من أحداث وحوادث ، فستجد لذلك لذة ، ووقعا جميلاً في نفسك ، ثم تابع المسير من الماضي البعيد إلى الأمس القريب ، مرحلة بعد مرحلة ، وفترة في إثر فترة ، فستجد أيضاً للماضي عذوبة وخصوبة ، حتى ذكريات الحزن والمتاعب ، ستجد لها وقفاً حلواً ، ذامذاق دقيق عميق في أغوار نفسك ، وأرجاء حسك ؛ ولا تزال هكذا حتى تصل إلى اليوم الحاضر ، فإن أفلحت في صبغ هذا اليوم الحاضر بما صبغت به الماضي من حلاوة الذكرى ، وعذوبة الاسترجاع ، فقد بلغت الغاية في الإحساس بالسعادة ، وإن خدعك شيطانك ، فأقمت بين جمال الماضي وحقيقة الحاضر حجاباً كشيء من أوهامك وأسقامك ، وسوء أحكامك ، فأنت رجل تريد أن تخلق لنفسك ما يسعى إليها بالضيق والألم ، بينما تستطيع أن تظل مغموراً بالخيرات والنعم . .

وإن الصفحات التي يكتبها أديب أو ذو رسالة في الحياة عن ذكرياته ، أو أحداث حياته ، أو ما لاقاه في بيئته وبين جماعته ، تعتبر أدق نخب يكشف عن نفسه ، ويحدد لون اتجاهه ، ويحلي خلاصة الدروس والتجارب التي مرت به ؛ فيكون في هذه الخلاصة عبرة وتذكرة ، وتعليم وتقويم ،

وتسجيل وتحليل . . . خصوصا إذا توفرت في هذه المذكرات عناصر الدقة والإخلاص ، والإنصاف في الحكم على الأشياء والأشخاص .

وهذه إشارات قرآنية في موضوع الذكري :

- ١ - « كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ؛ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ » .
- ٢ - « فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .
- ٣ - « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .
- ٤ - « وَذَكَرْ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » .
- ٥ - « فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ اللَّهِ كَرِي » .
- ٦ - « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ، فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » .
- ٧ - « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

وكلمة « واعظ » تذكر بالدعوة إلى الله . . والدعوة إلى الله إيمان وذوق وفن ، قبل أن تكون حرفة أو تجارة أو قيادة ؛ وكم من أناس نصبوا أنفسهم دعاة إلى الحق ، وهم أحوج ما يكونون إلى أن يعرفوا هذا الحق ، وإلى أن يدعواهم أنفسهم إلى صراطه . .

فالدعوة إلى الحق تستلزم أولا أن تعلم ما هو الحق ، وأن تؤمن بوجوده ، ولزوم اللجوء إليه ، والحرص على اتباعه ، وهي تستوجب في الداعية ذوقا ، يميز له بين ما يليق وما لا يليق ، فليس كل ما يعلم يقال ، ولكل طبقة من الناس ما يلائمهم من حديث ؛ وقد يكون اللين في موطن من أوجب الواجبات ، وقد تتطلب المناسبة حزمًا وعزمًا يصلان إلى المراد ؛ وهذا كله لا بد له من ذوق ، يمتزج بالحكمة فيستوى به الداعية على سواء السبيل ، فلا يضل ولا ينحرف ، ولا يكسب أعداء بدون مناسبة ، ولا يخسر أصدقاء بلا ثمن . والدعوة تحتاج إلى فن ، وهذا الفن يحتاج إلى المعبية وبراعة ، يحسن بهما صاحبهما النفاذ إلى القلوب ، والتأثير

في العقول ، والسيطرة على المشاعر ، والتخلص من المآزق ، وحسن التآني لحل الأزمات وفرض المشكلات .

فيا أيها الذين نصبتم أنفسكم لهذا الغرض الجليل ؛ تدبروا وتبصروا لتدركوا أين تقفون من هذا الطريق . . . ولا تكونوا كالذين يصدون عن صراط ربهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . ولو أسرفوا في هذا الجهل والضلال لقليل عنهم : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون » . اغرسوا الإيمان أولا في صدوركم ، كشجرة عميقة الجذور ، سامقة الجذع ، مورقة الأغصان ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويجد صاحبها قبل غيره في ظلالها الثقة والأمان ، واليقين والاطمئنان ، فإن هذا الإيمان يجعل العسير يسيرا ، والأحزان أفراحا ، والمتاعب مناعم . ثم أبرزوا هذا الإيمان للعنوى الروحي المستكن المسيطر على العواطف والمشاعر والأحاسيس عملا وتطبيقا ، وتقيدا وتنفيذا ، حتى لا تكونوا بمن قيل فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . وخير القول ما صدقه العمل ، وأرجى فكرة وأدناها إلى النفع والإثمار هي ما صاحبها التطبيق والتنفيذ ، وإن القدوة الصالحة يجليها صاحبها لسواء لهى أشد تأثيرا وأكثر تعميرا من خطب تقال ، أو محاضرات تتردد ! . فهذا هو الطريق ، أفأنتم عليه سائرون ، يا هداة الحجة وأدلاء المسير ١ ؟

وهذا جانب من حديث القرآن عن الوعظ والدعوة :

- ١ - « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .
- ٢ - « قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي ، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

٣ - « وَيَا قَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؛ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ » ١ .

٤ - « وَأَنْ لِّلْمَسَاجِدِ لِلَّهِ ، فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا »

- ٥ - « وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .
 ٦ - « وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .
 ٧ - « وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

٨ - « أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » .
 وكلمة « أسير » تذكر بالأسر والاعتقال ، والأسر حرمان من الحرية ، والحرية أعلى شيء في الوجود ، وهل يحس المحروم من حريته وانطلاقه بكيان أو استقرار . . . ولا يمكنك إطلاقاً أن تقدر قيمة حريتك حق قدرها ، وأن تدرك جلال خطرها ، إلا إذا سلبت منك . فهناك تعرف خير المعرفة أنك بدون الحرية لا تساوى شيئاً ، وأنتك بحريتك الكاملة كل شيء ، ولا غرو ، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ولقمة العيش لا يدرك لذتها المتخوم المترف ، أو المبطون الممتلىء ، ولكن يهش لها ويلتذ بها الجائع اللففان ؛ ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من يسلب إنساناً حريته ، أو يجرح كرامته ؛ ورضى الله عن عمر يوم ثار ثورة الهصور الطعين ، وغضب غضبة البحر الهائج ، ومار مورة الإعصار العاصف ، وقال لعمرى حينما تطاول ابنه على كرامة فرد من الرعية : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! .

ألا إنه لا يعتدى على حرية الآخرين - أفراداً أو جماعات - إلا كافر أو فاجر ، ولعنة اللاعنين جميعاً على كلهم .
 وعلى الرغم مما في الأسر من حرمان وامتحان ، فهو لا يخلو من عظات وعمرات . . . إنه كما ذكرت يعرفنا قيمة الحرية ، فترداد عليها حرصاً وبها تمسكاً ، ونحسن استخدامها حين تتاح لنا على وجهها الصحيح ، ونجاهد لتبقيتها للمحرومين منها ، فيكون ذلك منا خير إصلاح وإحسان .
 وصنع الجليل أو المعروف له في نفس الكريم الأصيل هزة قد لا تثيرها رنات المثالث والمثاني :

ولم أر « كالمعروف » . أما مذاقه

فخلو ، وأما طعمه فخييل

والأسر فيه حبس وعقل وتضييق . وتلك فرصة ينتهزها اللبيب ، فيراجع ويقارن ويتأمل ، ويستعرض سابق الصفحات وحاضرها ، ويستتبع ما يفيد في حاضره وقابله ، ويزيده بالأيام وأهلها خبرة وتجربة ، ويفتح عقله وحيلته ؛ ولعل كثيراً من جلائل الآراء والأفكار قد شهدت ميلادها على أيدي العاقرة والأفذاذ ، وهم خلف الأسوار محرومون - حين - من الحرية والانطلاق .

وتلك بعض الإشارات عن تكريم القرآن للإنسان وحرية: ١ - « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .
 ٢ - « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » .
 ٣ - « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

٤ - « يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ، مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ ، فَسَوَّاكَ ، فَعَدَلَكَ ، فِي أَى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ » ؟ ! .

٥ - « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

٦ - « وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا » .

٧ - « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَسَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَمْلِكُونَ » .

٨ - « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

على أساس هذه المعاني التي استخلصناها من كلمات « مذكرات » و « واعظ » و « أسير » أحب لقرائي أن يقرأوا كتابي : « مذكرات واعظ أسير » . ١ .

ومن يدري ، لعلمهم يلحظون مالم ألاحظ ، ويشور في أذهانهم أو صدورهم مالم يثر في خاطري أو جناني ، والهبات أرزاق . والله أسأل أن يجعلني وإياك بمنعة التواضع ، حين يتطاول الأقرام . وسلام عليك في المتبصرين .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر